نصّان عن قوة الأدب وفن التخييل:

تقديم وترجمة/ أحمد المديني

١ـ مديح الكتابة والتخييل

ماريو فارغاس يوسا

تقديم

في عام ٢٠١٠ فاز ماريو فارغاس يوسّا بجائزة نوبل للآداب، وعُدّ هذا حدثا أدبيا وسياسيا أيضا على مستوى القارة الأميركية الجنوبية، أكثر من بيرو التي ينتسب إليها هذا الروائي الشامخ ، قبل أن يحظى بالجائزة، وهذا فضلا عن مطامحه السياسية لرئاسة بلده. وقد جرت العادة أن يلقي المُتوَّجُ خطابا أمام أعضاء الأكاديمية وجمهور خاص منتقى يُدعى للحضور. وأصبحت هذه الخطابات، ومنذ عقود، تحظى باهتمام الجمهور الأدبي والنقاد، نظرا لما يضمنها الكتاب من آراء وتصورات راجحة حول مفاهيم الأدب والإبداع عامة، وممارستهم الخاصة، ومواقفهم من الحياة وقضايا زمانهم، بما يعطيها أهمية استثنائية، تعمّق النظر في أعمالهم، وتكشف عن وجوه ناصعة للضمير الثقافي، والوعي السياسي، المقترنين بكل إبداع، وذلك من خلال تجربة شخصية متميزة،تتحول إلى تجربة كلية إنسانية، بالاعتراف الذي نالته بالجائزة. ولنا أن نستحضر من بين هذه الخطابات واحدا شهيرا منها، ألقاه ألبير كامي سنة١٩٥٧ أمام الأكاديمية السويدية، بعد حصوله على جائزتها العالمية، الشهير ب"خطاب السويد"، ويعد بمثابة بيان شمولي عن وضع الكاتب في عالم الأدب وتجاه القيم والأخلاق، في زمانه، إلى جانب محاضرته في جامعة أوبسالا التي ما زالت أصداؤها تُدوِّي إلى الآن. (أنظر ترجمتنا للنص في:(ألبير كامي، خطاب السويد، أو الفنان وزمانه، عمان، دار أزمنة،٢٠١٠). وقد كنا قد ترجمنا من قبل عملا نظريا أساسا ليوسا حول مفاهيم ومفاتيح الكتابة الروائية، يعتبر

مرجعا في بابه، بحكم الحنكة المشهود بها لصاحبه(أنظر:رسائل إلى روائي ناشئ، أزمنة، ٢٠٠٥). تجدر الإشارة أن مصطلح التخييل هو ترجمة Fictionالتي تعني وتشير إلى الكتابة السردية، حكاية ورواية، وحديثا تنصرف إلى القصة عموما.

في ما يلي ترجمة للفقرات الأساس لخطاب يوسا الذي ألقاه بالإسبانية(٢٠١٠/١٢/٧) نرى معانيه الأدبية والقيمية ومُثله ما تزال على حيويتها وقوتها الظرفية وعلى المدى البعيد، أيضا. وهي المعاني ذاتها التي اعتبرتها دار غاليمار الفرنسية مسوغة وقوية القيمة والإشعاع لتعمد الآن(شهر آذار، مارس ٢٠١٦) إلى إصدار أهم أعمال يوسا الروائية في سلسلة (لابلياد) المخصصة للخالدين، ولم يدخلها من أدباء أميركا اللاتينية سوى بورخيس وأكتافيو باث، وهذا اعتراف جديد بأن يوسا من عمالقة الرواية في أميركا الجنوبية، ومنها إلى أفق الرواية العالمية. وما يعنينا نحن هنا هو ما يختص بالدرجة الأولى بالجانب الأدبي من تجربة يوسا، رغم أن حياة الرجل ارتبطت ارتباطا عضويا بالعمل السياسي وبرامجه في بلاده. وهو في شبابه اعتبر نفسه من مريدي سارتر، وتعهد بإبداع أدب اميركي لاتيني ملتزم. وقد فضلنا في هذه الترجمة تجاوز جزء من ملفوظاته السياسية لطابعها السِّجالي، ومغالاتها في مناهضة خصومه من الجناح اليساري المعادي لصفه الليبرالي، كما أن هناك تفاصيل حول نشأته وتربيته وحنينه لوطنه الأم البيرو بمثابة معلومات مبذولة. ونحن ننقل نص الخطاب، أولا، عن الترجمة الفرنسية التي قام بها ألبير بن سوسان، وهو مترجمه الفرنسي الأول منذ عام ١٩٧٤، ومقارنيها بالنسخة الأصلية المعتمدة من مؤسسة نوبل، والموضوعة لديها، ننجز ترجمتنا العربية، فوجب التنويه. المترجم

المتن

"تعلمت القراءة في سن الخامسة، في صف الراهب جوستنيانو، بكوليج لاسال، كوشبامبا (بوليفيا). هذا أهم ما حصل لي في حياتي. وها أنذا، بعد حوالي سبعين عاما، ما زلت أتذكر بوضوح تام كيف أن هذا السحر، الذي هو أن تترجم إلى صور كلمات الكتب، قد أغنى وجودي، وكسر حواجز الفضاء والزمن، بأن سمح لي أن أقطع مع القبطان نيمو في غواصته عشرين ألف مكان تحت البحار[رواية جول فيرنٍ]، وأن أصارع إلى جانب أرتنيان، أتوس، وبورتوس، وأرامس، ضد المكائد التي هددت الملكة زمن الداهية ريشيليو، أو أن أتسلل في أحشاء باريس، وقد صرت جان فالجان[بطل رواية البؤساء لفيكتور هوغو] حاملا على ظهره جسد ماريوس الهامد. لقد حولت القراءة الحلم إلى حياة، والحياة إلى تهيؤ، لما وضعتْ عالم الأدب في يد الولد الذي كنت. وقد حكت لي أمي أن الأشياء الأولى

التي كتبت هي تتمات الحكايات التي كنت أقرأ،لأنني كنت أحزن بانتهائها، وأنني أريد تصحيح النهاية. ربما كان هذا ما فعلته طيلة حياتي من غير أن أعلم: أن أمدد في الزمن ـ وأنا أكبر،وأنضج، وأشيخ ـ الحكايات التي عمّرت طفولتي بالحماس والمغامرات.

ما أشوقني لوجود أمي هنا بيننا، هي التي كانت شديدة التأثر، وتبكي وهي تقرأ أشعار أمادو نيرفو[الشاعر المكسيكي] وبابلو نيرودا[الشاعر التشيلي]وكذلك جدي بيدرو الذي طالما احتفى بأشعاري، والعم لوشو، من شجعني كثيرا على الانهماك جسدا وروحا في الكتابة، رغم أن الأدب في هذه الفترة، وهذا المكان، لم يكن ليطعم محبيه إلا النزر اليسير. لقد عاش هؤلاء الناس دائما إلى جانبي، أحبوني وشجعوني، وكم بثوني إيمانهم حين يلحقني الشك. بفضلهم، ومن غير شك، أيضا، اعتمادا على عنادي وحظ لا بأس به، استطعت أن أكرس جزءا كبيرا من وقتي لهذا الهوس، هذه "العلة" والعجيبة: مُمثلةً في أن أكتب،أن أخلق حياة موازية حيث نحتمي ضد المحنة،وتجعل الطبيعي عجيبا،والعجيب طبيعيا،وُتبدد الخراب، وتجمِّل القبيح، وتخلِّد اللحظة، ويُمسي الموتُ مجرد مشهد عابر.

لم يك ثمة أصعب من كتابة الحكايات، فبمجرد ما تتحول إلى كلمات، تذبل المشاريع فوق الورق، وتتراخى الأفكار والصور. كيف يمكن إحياؤها، إذن؟ من حسن الحظ، فإن الأساتذة حاضرون لنتعلم منهم، ونحتذي مثالهم. فقد علمني فلوبير أن الموهبة هي انضباط مثابر وصبر طويل. ومن فوكنر تعلمت أن الشكل ـ كتابة وبنية- هو ما يغني أو يفقر المواضيع. وعن مارتوريل، ثربانتس،ديكنز، وبلزاك، كونراد، توماس مان، أخذت كون العددِ والطموح مهمان كذلك للرواية بقدر ما هي هامة المهارةُ الأسلوبية واستراتيجيةُ السرد. ومن سارتر أفدت أن الكلمات مواقف، وأن الرواية والمسرحية والبحث، وهي ملتزمة في زمنها وفي الاختيار الأفضل، يمكنها أن تغير مجرى التاريخ. ومن كامو وأورويل تعلمت بأن الأدب بدون أخلاق هو لا إنساني،ومن مالرو بأن البطولة والشعر الملحمي لهما مكانهما في الحاضر تماما كما كانا عليه في زمن الأبطال الأرغونوت الإغريق، والإلياذة والأوديسة.

الحق أني لو استحضرت في هذا الخطاب كل من أنا مدين لهم من الكتاب، بقليل أو كثير، لألقت بنا ظلالهم في الظلام. فهم كثر. هم لم يعلموني أسرار مهنة الكتابة، فحسب، بل وكشفوا لي عن مزالق الكائن، وأن أُعجب بمآثره، وأرتعب من انحرافاته. كانوا الأصدقاء الخدومين جدا، ومنشّطي منزعِي الأدبي، وفي كتبهم اكتشفت بأن ثمة دائما، وفي أسوأ الظروف، أمل. وبأن الحياة تستحق أن تعاش، ولو لمجرد معرفتنا أنه لولاها لما استطعنا،لا القراءة، ولا تخيل الحكايات.

وكم تساءلت إن لم تكن الكتابة في بلدان كبلدي، قراؤه قليلون، وفقراؤه غفير، وكثير من الأميين والمظلومين، وحيث الثقافة امتياز لطغمة؛ لكم تساءلت، إذن، أليست الكتابة ترفا توحُديا. غير أن هذه الشكوك لم تخنق منزعي البتة، إذ ثابرت على الكتابة، حتى في أوقات امتصت فيها الأعمال المعيشية جل وقتي. أظن أني تصرفت بحكمة، ذلك أنه، ومن أجل أن يزهر الأدب في مجتمع ما لزم، أولا، الوصول إلى الثقافة الرفيعة، إلى الحرية، إلى الرفاهية والعدالة، وبدون ذلك لما وُجِد. وبفضل الأدب، والوعي الذي كوّن، والرغاب والهالات التي ألهم، وخيبة الأمل في الواقع إذ تمتصها قصة جميلة، بفضل هذا أضحت الحضارة اليوم أقل رعبا مما كانت عليه حين شرع الرواة في أنسنة الحياة بحكاياتهم. ولكم كنا سنصبح أسوأ مما نحن عليه بدون الكتب التي قرأنا، أكثر محافظة، وأقل وسواسا، أكثر خضوعا، ولما وُجد الحِسُّ النقديُّ الذي هو محرك التقدم، قط. تماما مثلما يعني أنك إذ تكتب وتقرأ هما أن تحتج ضد نقائص الحياة. ومن يبحث في التخييل[الرواية]عن ما لا يملك، يعبر، من غير ما حاجة لقوله ولا علمه، أن الحياة كما هي لا تكفي لإطفاء غلتنا للمطلق، الذي هو عماد الوجود الإنساني، وينبغي أن يكون أفضل. ونحن نخلق التخييل لكي نعيش بطريقة ما الحيوات المتعددة التي نرغب، فيما لا نتوفر بالكاد، سوى على حياة واحدة.

بدون تخييل سنصبح أقل وعيا بأهمية الحرية التي تجعل الحياة قابلة للعيش، والجحيم الذي تنقلب إليه حين يتم تمريغها تحت أقدام الطغاة،أو تحت سطوة إيديولوجية أو دين. وعلى الذين يشكون في أن الأدب الذي يغمرنا بحلم الجمال والسعادة، وينذرنا، فضلا عن هذا، ضد كل أشكال الاضطهاد،عليهم أن يتساءلوا لماذا يخاف الأدبَ كل تلك الأنظمة المهووسة بمراقبة سلوك مواطنيها من المهد إلى اللحد، إلى حد وضع نُظم رقابة لقمع ومراقبة الكتاب المستقلين. تعرف هذه الأنظمة في الواقع أيَّ خطر في ترك الخيال يرسل خطابه في الكتب، وكم هي مفتنة الروايات حين يقارن القارئ الحرية التي تتيحها وتنشرها، مقارنة بالظلامية والخوف اللذين يتربصان به في العالم الواقعي. إن نُسّاج الحكايات، سواء رغبوا في ذلك أو لم يرغبوا، علموا أو لم يعلموا، يعملون بخلقهم القصص على نشر عدم الرضا، بإظهارهم كيف أن العالم مصنوع خطأً، وأن حياة الخيال أغنى من رتابة اليومي. وهذه المعاينة، إذا ما استقرت في الحساسية والوعي، تجعل من الصعب تطويع المواطنين، وتقبلهم لأكاذيب الذين يريدون إقناعهم أنهم، وهم واقعون في شرك المحققين والسجانين، يعيشون عيشة راضية.

إن الأدب الجيد يمد الجسور بين ناس مختلفين، وهو بإمتاعنا، وإبهارنا أو إيلامنا، يوحدنا، مخترقا اللغات والأديان، والعادات والتقاليد والأحكام المسبقة التي تفرق بيننا. وحين يضرب سمك القرش الأبيض الهائل القبطان أشاب [موبي ديك] فقلوب القراء تنقبض وهي في طوكيو، أو ليما، أو

تومبوكتو. وحين تبلع إيما بوفاري [مدام بوفاري] سُمَّها، وترتمي أنا كارنينا تحت قطار، أو حين نتبين أن جميع سكان كومالا، قرية بيدرو براموا[عنوان الرواية الشهيرة للمكسيكي خوان رولفو]، فالرعشة ذاتُها تنتاب في القارئ، آمنَ ببوذا، أو كونفوشيوش، عيسى، أو الله، وسواء ارتدى سترة بربطة أوجلبابا، أو كيمونو. إذ الأدب يخلق أخوة داخل التنوع البشري، ويسقط الحدود القائمة بين الرجال والنساء بسبب الجهل والأديان، واللغات، والغفلة، أيضا.

وكما عرفت كل العصور خوفها الخاص، فإن عصرنا هو عصر التطرف، والإرهاب الانتحاري، وهو نوع قديم يعتقد أنه بالقتل تُشترى الجنة،وأن دم الأبرياء يغسل العار الجماعي، ويصحح الظلم، ويفرض الحقيقة على المعتقدات الزائفة. ولكم من ضحية تذهب يوميا في أماكن متفرقة من العالم،على يد من يشعرون أنهم مالكو الحقيقة المطلقة. وقد كنا اعتقدنا أن انهيار الإمبراطوريات الشمولية، وأن التعايش، والسلام، والتعددية، ستؤدي إلى استتباب حقوق الإنسان،وأن العالم سيترك وراءه الأهوال،والغزوات وحروب الإبادة، والحال أننا إنما نرى من جديد استفحال أشكال جديدة من الوحشية،تؤججها أشكال التطرف، ولا نستبعد قيام حرب نووية بوقوع أسلحة الدمار الشامل في يد جماعات متطرفة. لذا، ينبغي قطع الطريق في وجههم، وتفكيكهم. وهم ليسوا عديدين، حتى ولو دوّت شظايا جرائمهم في آفاق الدنيا. علينا أن لا نقع تحت تهديد الذين يريدون سلب الحرية التي كسبنا في المدى الطويل والبطولي للحضارة. لندافع عن الحرية الليبرالية، فهي برغم ما ينقصها، تعني التعددية السياسية والتعايش، والتسامح، وحقوق الإنسان، واحترام النقد، والمساواة، والانتخابات الحرة، التناوب على الحكم، وكل ما أخرجنا من حياة التوحش،وقرّبنا، دون أن ندركها أبدا، من الحياة الجميلة والكاملة التي يوهم بها الأدب،الحياة التي لن نستحقها إلا بابتكارها،بكتابتها وقراءتها. كما أننا بمواجهتنا للمتطرفين القتلة ندافع عن حقنا في الحلم وفي جعل أحلامنا حقيقة. في شبابي، وشأن عديد كتاب من جيلي،كنت ماركسيا،وآمنت بأن الاشتراكية هي الدواء ضد الاستغلال،والظلم الاجتماعي الضاربين لبلادي[البيرو] وأميركا اللاتينية وباقي العالم الثالث. وإذ تركت خلفي النزعة االدولتية والجماعية، جاء عبوري إلى وضع الديموقراطي والليبرالي الذي صرته ـ أحاول ـ جاء صعبا وطويلا،وتحقق ببطء.(...).

وفي طفولتي حلمت بالذهاب إلى باريس، لأنني بافتتاني بالأدب الفرنسي، حسبت أن العيش هناك، وتنفس الهواء الذي استنشقه بلزاك، وستندال، وبودلير، وبروست، سيساعدني على أن أتحول إلى كاتب حقيقي، وأنني بعدم الخروج من البيرو لن أكون أكثر من كاتب هاو. الحق أني مدين لفرنسا وللثقافة الفرنسية بفوائد جمّة لا تنسى، منها القول بأن الأدب موهبة بقدر ما هو انضباط، هو عمل ومثابرة. لقد عشت هناك وسارتر وكامي حيّان ويكتبان، في سنوات بيكيت، وباتاي، يونيسكو

وسيوران، خلال اكتشاف مسرح بريخت وسينما إنغمار برغمان، مسرح جان فيلار وجان لوي بارو، الموجة الجديدة للسينما، والرواية الجديدة، وزمن الخطابات وقطع الحماسة الأدبية لأندريه مالرو، وكذا الفُرجة الأكثر مسرحية لأوروبا آنئذ، ممثلة في الندوات الصحافية والضربات المدوية للجنرال ديغول. بيد أن لفرنسا عليّ دَيْناً أكبر كونها عرّفتني على أميركا اللاتينية. ففيها تعلمت أن البيرو جزء من مجموعة واسعة يُوحَدها التاريخ، والجغرافيا، والإشكالية الاجتماعية والسياسية، وبطريقة ما للوجود وباللغة العذبة التي تتحدث وتكتب. وأنها خلال تلك السنوات أنتجت أدبا مجددا ومثيرا. هنا قرأت بورخيس، أوكتافيو باث، كورتثار،غارسيا ماركيز، كارلوس فوينتس، كابريرا أنفانتي، رولفو،أونيتي، كاربانتيي، إدواردس،دونوسو وآخرين ممن ثوّرتْ نصوصهم الكتابة السردية باللغة الإسبانية، وبفضلهم اكتشفتْ أوروبا مع قسم مهم من العالم بأن أميركا اللاتينية ليست بلد الانقلابات العسكرية فقط، والزعماء من قش، والمحاربين الملتحين،أو راقصي المامبو والتشا تشا تشا، بل، وأيضا، قارة الأفكار والأشكال الفنية والنزوات الأدبية ذات اللسان العالمي. منذ هذه الفترة وإلى يومنا، وبما لا يخلو من تعثر وأخطاء،حققت أميركا اللاتينية خطوات متقدمة، إنما، وكما قال سيزار فاليخو في هذا البيت:" يا إخوتي هناك كثير مما ينبغي أن يأتي".

(...) لنعد إلى الأدب. ليست جنة الطفولة عندي أسطورة أدبية، ولكن حقيقة عشتها، وتمتعت بها في بيت العائلة بكوشابامبا، أو مع بنات عمي ورفاقي في الصف المدرسي، حيث كنا نقلد قصص تارزان وسالغاري...خلال هذه السنوات،كانت الكتابة لعبة تصفق لها عائلتي، وتحتفي بي،أنا الحفيد، الإبن بلا أب، لأن أبي كان قد رحل عن هذا العالم. أتذكره: رجل ذو قامة عالية، ووجه حسن، وبهندام بحّار، والذي صورته منصوبة عند حافة سريري أقبلها بعد أداء صلاتي، وقبل النوم. وذات صباح في بيورا، لم أتعاف أبدا من صدمته، أسرّت لي أمي أن هذا الرجلَ حيٌّ يُرزق، وأننا من هذا اليوم سنذهب إلى ليما للعيش معه. كنت في الحادية عشرمن عمري،ومنذئذ تغير كل شيء عندي. فقدتُ براءتي واكتشفت الوحدة والحياة الراشدة والخوف. ونجوت بالقراءة،قراءة الكتب الجيدة،لُذت فيها بعوالم مثيرة،كثيفة، مغامرةً إثر مغامرة، وحيث شعرت بالحرية وبالسعادة من جديد. كذلك بالكتابة في الخفاء، مثل من يمارس رذيلة، أو هوىً محرما. منذئذ كفّ الأدب عن كونه لعبة ليتحول إلى طريقة لمقاومة المحن، وللاحتجاج، والتمرد، والإفلات من الشطط؛ أضحى غاية للعيش. منذئذ، وإلى الآن، وفي المناسبات التي شعرت فيها بالإنهاك، وعلى حافة اليأس، يصبح انهماكي جسدا وروحا في عملي الروائي ضوءاً يشير إلى مخرج النفق، وطوق النجاة الذي يقود إلى بر الأمان.

ورغم أن هذا يمثل شغلا شاقا، ويسيلني عرقا، ولأني على غرار كل كاتب أحس أحيانا بتهديد شلل الخيال أو توقفه، فلا شيء أمتعني في الحياة نظير قضاء أشهر وسنوات في بناء قصة، منذ ولادتها

غير الموثوقة،هذه الصورة التي اختزنتها الذاكرة من نثار تجربة معيش وغدت مقلقةً وحماساً ونزوة،إلى أن تثمر مشروعا وقرارا بتحويل هذا الضباب الآهل بالأشباح إلى قصة. لقد قال فلوبير:"أن تكتب، لهي طريقة في العيش". بكل تأكيد، طريقة للعيش في الوهم والفرح، بنار تلعلع في الرأس، بمحاربة الكلمات العصِيَّة إلى أن تطوع، وباستكشاف العالم الواسع صنيعَ صياد خلف طريدة ليغذي تخييله الناشئ، ويُهدِّئ من الشهية المفترسة لكل قصة تنزع وهي تكبر إلى افتراس باقي القصص الأخرى. هي أيضا الوصول إلى الإحساس بالدُّوار الذي ترمينا فيه رواية قيد التكوين،حين تتشكل وتبدو وهي تحيا لحسابها الخاص، بشخصيات تتحرك، تعمل، تفكر وتحس، وتتطلب الاحترام والاعتبار، والتي لا يمكن أن نفرض عليها عسفا أي سلوك، ولا أن نحرمها من اختيارها الحر، وإلا قتلناها، بدون أن تفقد القصة قدرتها على الإقناع؛ هذه هي التجربة التي تعجبني دائما، كما أعجبتني المرة الأولى، بكل امتلائها وهوسها،الشبيهين بممارستنا للحب مع المحبوبة أياما وأسابيع وشهورا، بدون توقف.

(...) إن الأدب لهو تمثيل مغشوش للحياة، يساعدنا مع ذلك على الاهتداء في المتاهة التي ولدنا فيها، التي نعبر، وحيث سنموت. هي تعوضنا عن خسائر وإحباطات نُمَنَى بها في الحياة الحقيقية، وبفضلها نفكك، جزئيا على الأقل، الهيروغليفيا التي هي بمثابة الوجود بالنسبة لغالبية البشر،خاصة نحن،الذين نمتلئ بالشكوك أكثر من اليقين،ونعلن ارتباكنا إزاء مواضيع كالتعالي، والمصير الفردي والجماعي، والروح، والمعنى ولا معنى التاريخ، والعقلانية..

لقد فتنت دائما وأنا أتخيل الظرف الملتبس حين كان أسلافنا،وهم بالكاد يختلفون عن الحيوان، وللتو وُلِد الكلام الذي سمح لهم بالتواصل بينهم، وقد شرعوا في المغارات، وحول نار حطب، في الليالي المحفوفة بتهديد البروق والرعود،وزئير الوحوش،في اختلاق الحكايات وروايتها. لقد كانت هذه اللحظة الحاسمة لمصيرنا، إذ في حلقات الكائنات البدائية المشدودة إلى صوت خيال الحكواتي،هذه،بدأت الحضارة،هذا المسار الطويل،الذي سيؤنسننا شيئا فشيئا ويتيح لنا ابتكار الفرد ذي السيادة، بفصله عن القبيلة، ومعه العلم والفنون،القانون والحرية، ولتقصي ثنايا الطبيعة، وجسم الإنسان، والفضاء، وللسفر في الكواكب. هذه الحكايات والخرافات والأساطير التي تتردد في المرة الأولى كموسيقى جديدة أمام مستمعين مرتعبين من غوامض ومخاوف عالم كلُّ شيء فيه كان مجهولا وخطيرا؛لاشك أنها مثلت حمّاما منعشا، وملاذاً لأرواحٍ دائما على حافة القلق،والتي كان الوجود عندها لا يكاد يتعدى الأكل، والاحتماء من عوارض الطبيعة، والقتل والتوالد. وبمجرد ما بدأوا يحلمون جماعة، ويتقاسمون خرافاتهم المغذّاة بحكايا الرواة، انعتقوا من غلِّ العيش وحده،ودوامة الأعمال المنهكة، وتحولت حياتهم إلى حلم، متعة وأُلهية، وإلى مصير ثوري ـ أي

القطع مع هذه العزلة، وتغيير أوضاعهم وتحسينها- ومعركةً لتخفيف التطلعات والمطامح المستثارة لديهم بالحيوات المجازية، وبفضول كشف مجاهل يعكسها محيطهم.

وقد اغتنى هذا المسلسل الذي لم يتوقف أبدا بولادة الكتابة، ولم تعد الحكايات ُتسمع فقط، بل وتُقرأ أيضا لتبلغ الديمومة التي يخولها لها الأدب. ولذا علينا أن لا نتوقف عن تكرار القول إلى أن تقتنع الأجيال الجديدة، بأن التخييل[القصة، الرواية]هي أكثرمن تسلية، أكثر من ممارسة ثقافية تشحذ الحساسية وتوقظ الفكر النقدي. بأنها ضرورة لابد منها لتستمر الحضارة، ولتتجدد وتحفظ فينا أفضل ما لدى الإنسان. وحتى لا نتقهقر إلى وحشية اللا اتصال، ولا تنحسر الحياة في براغماتية المتخصصين، يرون الأشياء في العمق، لكن يجهلون ما يحيط بهم، يسبقهم، ويليهم. ومن أجل أن لا نتحول إلى عبيد وخدم للآلات التي اخترعوا. ولأن عالما بلا أدب سيُمسي عالما بلا رغبات، بلا مُثل، بلا جرأة، عالمَ مؤتمتين[من الأتوماتيك] مفتقرين لما يصنع الإنسان حقا،أي قدرتَه على الخروج من نفسه ليصبح آخر وآخرين، عالما مجبولا بطين أحلامنا.

من المغارة إلى ناطحة السحاب، من الدبّوز إلى أسلحة الدمار الشامل، من الحياة الرتيبة للقبيلة إلى عهد العولمة، ضاعفت تخييلات الأدب تجارب البشرية بحيلولتها دون أن نتهاوى في الخمول والانطواء، والاستسلام. لا شيء زرعَ القلق، وهز الخيال والرغبات مثل حياة الأكاذيب التي نضيفها إلى ما عندنا بفضل الأدب، حتى نتعرف على المغامرة الكبرى والمبتغى الأكبر الذي لن تهبه لنا الحياة الحقيقية أبدا. إن أكاذيب الأدب تصبح حقائق عبرنا نحن، قراءها المتحولين، المصابين بعدوى المطامح، وهذا جرّاء خطأ التخييل، الذي يعيد دوما النظر في الحقيقة الهزيلة.. بهذا السحر الذي يهدهدنا بوهم امتلاكنا لما ليس بحوزتنا، وبكوننا ما لسنا عليه، وبالانتقال إلى هذا الوجود المستحيل، الذي يجعلنا، شأن الآلهة الوثنية، نحس بأنفسنا أرضيين وسرمديين في آن واحد،به يبث الأدب في نفوسنا روح الاختلاف والتمرد اللذين يثويان خلف كل الوعود التي ساهمت في كل مآثر ما خفف العنف في العلاقات البشرية. أقول، ساهم في تخفيف العنف لا إنهائه، لأن عنفنا سيبقى دائما، من حسن الحظ، تاريخا ناقصا. لهذا نحتاج إلى الاستمرار في الحلم، في القراءة والكتابة، وهي الطريقة الأمثل ما وجدناه للتخفيف من وضعنا المتردي، وللانتصار على استنزاف الزمن، وجعل الممكن مستحيلا."

٢ـ مَغْنَاةُ الحِبر

[أو كيف تفكر القصة في نفسها]

ألان نادو

تقديم

مغناة الحبر:"Le chant de l'encre"،هي قصة الكتابة نفسها،عمليتها ومراوغاتها. كيف تتم وتتحايل وتنشطر. قليل جدا هم الكتاب الذين فكروا بوعي في هذه اللعبة، وجعلوا منها على الخصوص مادة مفردة لقصة. قراءتي لهذا العمل النادر تعود إلى منتصف الثمانينات لدى صدوره ضمن المجموعة القصصية لألان نادو بعنوان: "Voyages au pays des bords du gouffres"(باريس، دونويل،١٩٨٦). أعجبت بهذا النص منذئذ، وتجاوبت بقوة مع هواجس صاحبه ووساوسه تجاه فن القص ولعبه، مع المناورات التي يجر إليها، خاصة الطريقة "اللولبية" التي صيغ بها، تتراوح بين السرد والعرض الفكري النقدي،أو ما بات يصطلح عليه بالميتاـ قصة، (كيف تفكر القصة في نفسها بصوت مرتفع، لو صح التعبير). هكذا بدل أن يحكي هذا النص أحداثا،أو ينسج خيوط معضلة، أو يرسم تقاسيما ذاتية وسلوكية لشخصية مأزومة في أفق رؤية محددة، وبلغة أدبية وبناء متسق، كما هو الشأن في كل قص منظم؛ عوض ذلك يجعل من القص ذاته موضوعه وأزمته، ويسائله بالدوران حوله وتوليد لمعاني كتابته، مشدودة وأنشودة. وفيما عرف الأدب السردي التخييلي منذ ذلك التاريخ تطورا ملحوظا في تيارات وخصائص تجديدية وتنويعية عديدة، تكاد الأسئلة والمحاور الكلاسيكية التي كرسها تاريخ الأدب بجدارة لا بنزق وافتئات، لا تتغير إلا لتتعمق، وتجدد رؤية الإنسان للحياة، وانخراط الإبداع في صوغها على نحو منسجم.

وهو ما يصدق على البيئة الأدبية العربية بدورها، التي هي في تشكّل مستدام بحكم الفتوة النسبية للأجناس الحديثة في مضمارها، ولأن نماذج التكريس فيها تعترضها صعوبات كثيرة، منها عناصر تشويش تصدر من قلبها حين يتصدى لفن القصة والأدب عامة، ناقصو خبرة وثقافة، وقليلو زاد لغة وبيان، ومن في أضرابهم. إذ كيف تؤول الكتابة الأدبية شعرا ونثرا إلى من يقطعون أوصال اللغة ويفتكون بأبسط ما ينسق الأدب، لا تجريبا أو تجديدا مزعوما، بل افتقارا فاضحا لكل دراية لا غنى عنها لمن يخوض غمار هذا البحر اللجب. إن التهاون بل الخفة في شروط الفن ومعياريته اللازمة، منها جماليته المقنعة في الحد الأدنى، أدت إلى تنسيبٍ بلغ حد الإسفاف. وإذا كنا لا نعني بتاتا أي تقديس للنص الأدبي، ولا أي مثالية، فإن الأدب يحتاج دائما لأن يقدم المثال عن أدبيته، وإلا ضاع الكلام وإنه ليضيع فعلا!

مرة أخرى، إن "مغناة الحبر"، بما تحوي من معالجة خصوصية وتميز مساءلة وجمال أداء، من واحد لم يكن أبدا من سدَنة التقليد بل مجددا نشيطا في طليعة المطورين للفن القصصي بفرنسا، ولم يقدُم نسيجُه ولا تهرّأ طرزُه، لأنه أصيل؛ هذه المغناة أعود إليها اليوم لأترجمها، ولأهديها لقراء يستحقونها، بعد أن مرت تحت جسر ثقافتي وذوقي الأدبي، وعلاقتي بهذا الإبداع، مياه ومياه، وكلها تعلمني أن الزبَد يذهب جُفاء وأن ما ينفع الجمال يرسب في القاع. المترجم

المتن:

"إن حياة الكتابة محسوبة بالوقت الذي يقضيه الحبرُ ليَيْبَسَ على مساحة الصفحة، وحين تكون الريشة قد عبرت وهو يضيء، بعد، على قمة حرف أو في نهاية كلمة، في شكل انعكاس يكاد لا يُرى، يلمع مذهّبا في كثافته السوداء، البارقة، مُرسِلا الضوءَ الحيَّ للمصباح. بهذا البريق الهارب والمُريب، كمرآة للحياة التي تنسحب، يتعلق تصاعد هذا الدَّفق الذي يتلف ويتبدّد في الاتصال مع الهواء، وإذ يشربُه يُبْسُ الورق. وحينئذ، فالريشة، وقد نأت غير مدركة موتا خلّفته وراءها، تهرب بصريرها إلى أقصى السطر صانعةً شعاعا خفيفا، معَلَّقاً، هكذا في الفراغ وُملقيا آخر أضوائه، في حركته التي تتجمد، تتقاطع، وتدريجيا تتخلى عن كل ظل لكي لا يتبقى منها في النهاية سوى الرسمُ الأسود، ليس سوى ظلٍّ شفّافٍ، يحمل صفاءه.

ويبقى الوقت الذي تقضيه الكتابةُ لفقدان لمعانها الثابت والمرن هو اللحظةُ الأثيرةُ حيث يكون لها، بعد، إمكانية العودة إلى نفسها، ثم وهي تستفيد من حركية المداد ومن سيولته في آن، تقتفي آثارَ أصولها الأولى قبل أن يأتي التيبُّس على أعضائها إلى الأبد. ذلك أنه في قلب هذه السيولة ربما استطاعت أن تعرف ما يحركها في جوهرها ويجعلها تركض في هذا الطرف من الصفحة إلى ذاك، دون أن تعلم بالسبب، في حين أن زمنها محسوبٌ وأن المدادَ وهو ينشف يغلق عليها واحدا، فواحدا، كلمة، فكلمة، أبوابَ ماضيها الخاص. وبقدر ما تستعجل الوصول إلى حالتها النهائية ـ التي ليست شيئا آخر غير مستقبل يتوالد دوما ولا يعرف نهايته ـ بقدر ما تنأى عن الاندفاع الأول الذي ولّد كلَّ الباقي وحيث يكمُن في الطرف القصيِّ منها السرُّ اللاّ مُدرَك لكُمونها.

والواقع أن الكتابة بمجرد ما تشرع في الحركة، ُقلْ منذ السطر الأول، إذ تفتتح أبسط كلمة للنص، تكون قد أدركت خطأها ولا جدوى عملها الذي يبعدها عنها، وأظهرت رغبتها في أن تعود القهقرى ، أن تنطوي في الصمت الذي سبق مجيئها، بالخصوص أن لا تضيف أي شيء للقليل الذي تهيأ له أن يقال. بيد أن هذا الوعي ما كان ليتأتى لها دفعة واحدة.. إذ كان ينبغي عليها أن تتعرف مسبقا على نفسها

في مسراها الخاص، وأن تحقق كينونتها في المدى عينِه الذي يؤسسها؛ بعبارة أخرى، فإنه ما كان لها أن تتوصل إلى هذه النباهة تجاه ذاتها وقد صيغت أخيرا بوضوح، إلا بتجميع لا حصر له من المفردات، والتي وضعت هي الأخرى حاجزا بين تجمُّعها العقيم وذكرى مصدرها الأول. في قعر الكلمة حيث المعادل يربو عن صفحة ممتلئة بأحرف تغمر الأفق، والأدهى حين تغدو متلذذةً بوجودها إلى الحد الذي تطالب به في شكله القائم وتتشبث به. إن الكتابة، منذئذ، تكون قد وصلت إلى أن تَفهم، وقد غدت أسيرة حركتها الخاصة، بأنه لم يبق أمامها من منجاة سوى منفذٍ واحد: الهروب إلى الأمام.

يلزمها، إذن، أن تلاحق، وبأي ثمن، ما يجري حولها، وأن تبقى أبدا في الطرف الأقصى من ذاتها، أن تبدو بشكل يجعل السرعة التي تظهر في ممارسة النَّسْخ تحفظ لها من نقطة إلى أخرى قدرة تحركها، بنشاط يدفئ الجملة من الداخل إلى الحد الذي يحفظ لها كل مرونتها، وعبر جلاء المداد الممخوض دون انقطاع، يمنحها شفافيتها. ولطالما اعتقدت أن ما يجعلها تستأنف وتواصل عبر كل جملة ليس في الحقيقة سوى الحلم بأن تكون أسرع، عساها تعود على عجَل إلى الهامش، وبهذا تتوصل إلى تأمُّل نفسها مثل خط مواز في مرآة السطر الذي يسبقها، وهي تعيد إليه صورتَها الأصلية متحركة وتجعله ينعكس في جسد الوجود المسبق لها...ـ ولكن، واحسرتاه ، لقد فات الأوان، إذ بين هذا وذاك قد نشَفَ المدادُ، ما يوقعها في سباق لاهثٍ عبثا تحاول أن تدرك فيه نفسها. ويحدث لها أن تحلم، طيلة هذه الرحلة اللاّ متقطعة من طرف صفحة إلى أخرى، بهذا المداد- المرآة، والذي يقدم لها أخيرا شيئا آخر غير الوجه العنيد لجسدها، الميت، المتخشّب، المتيبس، قبل، سرابٌ يتعهّد ذاتَه بذاته بما يجعل الازدواجيةَ تنقلب إلى محصلة وشيكة لتظل رغم ذلك مؤجلة.

هنا نرى، إذن، التحدي، والرهان المستحيل الذي اعتقدتُ أني أمسكت به: أن أحاول الكتابة، دون تردد وبدون أي توقف، وبسرعة ـ هل أقول تشبه سرعةَ الضوء ـ مماثِلة لتلك التي تقطعها الكتابة نفسُها لكي تفهم وتفكر في وضعها، وأن أقابل في تطابق كلي ومتواصل الزمنَ الحقيقي الذي أُحبّر فيه، والوميضَ البارقَ لهذه العملية وهي تتجه نحو الحقيقة، لتتساءل ليس فقط عن أحقية ما تعلنه، ولكن، أيضا، لنُسقط إلى الأمام ما ليس لها بعد في هذه اللحظة أيَّ وعي به. إنها لفي الواقع مفارقة، إذ التفكير الذي تتعلق به هذه الكتابة يسبق انزلاق الريشة على الصفحة بأقل من طُرفة عين إلى الحد الذي نعتقد فيه أنه هو السابق. في حين أنه العكس تماما، ذلك أنه ما كان بوسعها أن تعيَ ذاتها إلا وهي مدفوعة بسيل الكلمات وانسياب المداد اللاهث وراءها سعيا للالتحاق بها.

هكذا، يبدو ما كانت الكتابة تنوي إجراءه من تفكير وتأمل على نفسها غير قابل للتحقق إلا في قلب نشاطها. إنه لم يسمح لها أبدا بهذا التأمل، هي ومصدرها، بمعزل عن هذه الحركة النَّهِمَة التي تلتهمها كليةً فيما هي ُتوجِدها في الآن عينه ـ إننا نعُدُّ هذا مكسبا ـ . لقد لزم عليها أن تنحفر

عميقا، تاركة الفسحة المطلوبة لهذا الحبور اللا مرئي الذي تتعهّده بداخلها، وقد غدا غرفةً سريةً رُتِّبت بداخله مقدرةُ أن تَصُدَّ عنها ضجيجَها وأن تحفر بيأس في عدّ عكسيٍّ مما كان يجعلها تبتعد باستمرار عن مركزها. وأيُّ شعلة باهتة هذا الوعيُ الذي كان يلزمني ـ وقد كانت هذه هي الغاية الوحيدة من وجودي ـ بأن أغذّيها وأنا أضيف إليها مزيدا من الزيت ـ الكلمات تلو الكلمات!ـ ،التي لم يكن المعنى هو المهم فيها بقدر حضورها الكثيف والعاجل.

وهكذا، ودون أن أنساق وراء أيّ إفراط، وبالحسِّ الغامض، لأواجه هنا، إن لم يكن بعض ما هو ممنوع، فعلى الأقل تخطي صعوبة شاقة ؛ هكذا جعلتُ من واجبي أن أصُفَّ الكلمات بأسرع ما يمكن دون الاستسلام لأي إلهاء بُغية الوصول إلى أن يتطابق فعلُ الكتابة ووعيُها الخاص، السؤالُ وصيغتُه. هكذا كان الهدف: دون أن أتأمل أو أفكر في شيء أستبقُ فعل الكتابة هذا، وأصعد نحو منبعه ـ لذلك فإن مصدر الكتابة لا يقع، كما قد نعتقد بسهولة، في ماضي النص، أو في عاليه كما لو كان نهرا، ولكن في المستقبل العاجل للفعل، بالضبط في مقدمه، في طرفة العين التي تفصل الريشة عن نقطة ازدهارها على الورق ـ من هنا أعبر الحاجز الذي يشكل الأفق المرئي للغة؛ كما لو أن الأمر يتعلق بأن أذهب أسرع من التيار قابضا على الكلمات لأتخطاها وأبقى في طليعتها عند نقطة من التراوح الهش، تماما في الحيِّز الذي تتشكل فيه، وهنا، في العتمة البيضاء عديمة الاختراق التي تنتجها.

لقد تمثلت لي الطريقة الوحيدة للتحصن بأقل مقاومة ممكنة لقوة هذا الدفق، والبقاء في هذه الوضعية، في أن أظل في حِلٍّ من كل قصة أو حكاية، وأن أقلل من الدلالات الخارجية التي تعنيها في ذاتها منصرفا عن كل الانتقالات والتطورات التي تعتقد الكتابة أنها مضطرة للجوء إليها عادة كي تمارس الخدعة، فتصل،هذه، حتما إلى الاختناق، وبالنتيجة إلى ضرورة أن تجعل من ذاتها موضوع حكيها، ذلك أن الجميع يعلم أن العقدة التي تروي ليست إلا الذريعة التي تتخذ من أجل أن تسترسل في الخفاء، وأن لا تظهر بتاتا بما هي عليه. أن أسحبها من اللجوء إلى حُجّة ما وأحُولَ دونها وأيَّ مرجع، بل ولأقَلِّ سردٍ كان، لكن دون أن أتخلى، مع هذا، عن الإبقاء على الحركة في فراغ؛ ذلك كان هو التكتيك الذي تبنّيت. وبه وجدتْ نفسها عزلاءَ من كل سلاح، شاغرةً، وأخيرا مرغمة، كي لا تختفي، لأن تتحدث عن نفسها؛ وليس معنى هذا أن تشمئز إزاءها. لا، قطعا، وكل ما في الأمر هو أن نظرها إلى حالها وقد غدت مقلصةً في هذه الوضعية القصوى إلى أدنى حالة تعبيرية يؤكد لها أنها كانت ستقترب على نحو خطير من هذا المركز الذي يجري السعي لإبعادها عنه. وبذا لم يعد بوسعها أن تتقنّع سوى بالطريقة الوحشية التي تضطرها لأن تتغذى من لحمها، ولتواجه ذات يوم أو آخرَ محظور خيانةِ نفسها أو الانتقالَ إلى الاعتراف. فكم سيتأتّى لها، عندئذ، أن تصمد، وهي مختنقةً، مكبلةً، ومقطوعةً عن العالم دون قارب نجاة؟ من سيستسلم الأول، وماذا لو أنها آثرت

الغرق على أن لا تبوح بشيء؟ على كل فإنه هنا، في هذا المكان المحدد، قررتُ أن أَلبَد، مثل متربِّص ماهر، حذِرٍ وعنيدٍ في آن، لاعباً الاستنزافَ والوقت دون أن أكون موقناً تماما من حالة قواي، اليقِظة كلياً للعبة الإشارات، هذه، وزوالِها المحتمل، واضطرابِها.

كنت أشرع، أحيانا، وأنا مشدود إلى مراقبة هذا المسرى الذي لا ينفد، في الشك من انسجام مشروعي؛ ذلك أنه من المحتمل، أيضا، أن يكون حضوري قد رُصِد منذ وقت طويل، وأن خطتي قابلةٌ لأن تنقلب عليَّ، مع محذور أن أبقى ملقىً بي وحدي ومهملاً في هذه الصفحات وتتحول وضعيتي الراصدة، بفراغها، إلى منظر مضحك لا يكشف سوى عن بطلان مشروعي. لكن، وفي الوقت نفسه، وبما أن كل هذه التساؤلات تمر بواسطة الكتابة، فمن المحتمل هنا، أيضا، أنها هي التي تلهمني بها لتشوّش فكري، وتجعلني أتشكك في نفسي، وأرخي الحبل على الغارب، ولحظة التردد، هذه، تكفيها لتباعد وتهرب.. لقد بدا لي واضحا، وأنا أفكر في ذاتي وأتساءل عن مدى صواب استراتيجيتي، أن انتباهي الذي زاغ عن موضوعه الأصلي، قد تسبّب في حفر هوة، دون قصد لذلك.

وكان الوقت قد حان لاستعادة السيطرة على الأمور، وللحسم في عمق الكلمات من غير أن أنشغل بمزاعمها. ولكن بدا في مكان ما، أن الامتداد قد توقف، والخيط القائد انقطع.. ولهذا السبب لم أكن أتوصل بتاتا إلى الانطلاق بالسرعة المطلوبة؛ في ما بعد وجدتني ملزما أن أتوقف لأفكر، لأبحث عن جملتي أحيانا، شاعرا بعدم الارتياح، بأن أعيد النظر في مقاطع بأكملها. لقد أخذت النقائصُ تلحق كتابي، وطفقتْ تتعثر ويكثر فيها الشطب الذي أحدث ارتباكا في الصفحة تلو الصفحة ناشرا الالتباس وُمحدِثا شروخا في انتظام السطور. وبالإثارة شبه المرعبة التي تمارسها التشطيبات فإنها كانت تبطئ حركة المجموع، وتقدم فكرة تضطر باستمرار للعودة إلى نقطتها الأولى وتتهالك بمآخذ أنها لم تقدر على تجنب هذه الأخطاء والتخطيطات التي تشوّهها، تعتبرها بمثابة حجة على عدم أهليتها لإنجاز وظيفتها كما ينبغي، وساعية، في نظري، إلى الانتقاص منها.

خلالئذ، ومستفيدا من هذا الوعي الشقي، كان ثمة شيءٌ يواصل أمامي في هذا البعد الذي لا أدرك فيه أنني كدت أفقد أفضل ما لديّ من أسلوب، وفي بعض لحظات الكتابة الممتازة بمرونتها وسرعتها أن أمسّ بأصبعي أو أُسمّر الورق بضربة ريشة. قليلة هي الأشياء التي كانت تكفي لألقي على هذا الظل المتماهي، والهارب، في هذه اللحظات؛ أن ألقي عليه الشباك الثقيل لشكاواي وأخطائي، للحروف الصامتة والحروف الصائتة، للمنحنيات والخطوط، السلاح الوحيد الذي لم أتوفر عليه بعد بغية وضع اليد على ما تبقّى من الحقيقة. ولكن، كان ينبغي لكي أصل إلى هذا المكان أن أبذل مزيدا من الجد، أن أتدرب بانتظام على هذا الشيء الذي يصعب ضبطه، اللا متوقع والمربك، والذي لا يبطئ في سباقي لتعِلاّت عديدة ولكن يقاوم أقصى درجات المقاومة ضد الاستعمال. تهيأ

لي أكثر من مرة أنني طوعتُ الشكل وحسّنتُه. وفي لحظة معينة ما ألبث أن أحس بأن هناك ما يعترض على حركتي، يُضيع عليّ فرصتي وفائدتي.. أن هذه الكتابةَ المرغمة على أن تصارعَ نفسها، والمأخوذةَ في تناقض مستدام تبدي نحوي مقاومة سلبية، وأنها تلعب معي بقوتها الخاصة لتحُول بيني وبين الوصول متظاهرةً أنها تخدُمني. ففي هذا السياق المرير بدا واضحا أن هذه الكتابة، رغم تحملها للجهد الرئيس المبذول، تراوغ لإضاعة وقتي، وتخريب كل خططي في اللحظة الأخيرة. ودون أن تتوفر لديّ الحُجة الدامغة، فإن التحجيم الذي تتعرض له ُخدَعي واحتيالاتي المُعدّة بمهارة يجعلني أفترض وجود من يتآمر عليَّ خلال نشاطي هذا.

ولكن، هل تبقّى لي الوقت للدخول حقا في مثل هذه الاعتبارات؟ أو لم يبدُ محسوساً أن الإيقاع عاد بغتة لسرعته، وأن الكتابة لكي تمنع عني كل متعة لاستقبال الأسئلة التي تزيد من تشكيكي فيها، كانت قد قررتْ أن تلعب معي ورقة المصالحة. فجأة، أيّ قطار جهنمي هذا يلاحقني! لقد كانت الكلمات تتسارع في هذه اللحظة بسرعة جنونية لدرجة أني كنت أكتب أوائلها، بحيث إني اضطررت للاستمرار دون توقف، بلا فواصل، ونَفَسي يقفز معها، متجنبا الوقوع في خطأ وتَخيّل باقي الاحتمالات لنهاية الصفحة. والمهم، أن أبقى في حالة تيقظ مستمر كي لا تُحفَر أمامي أيّ هوة. من هنا تولّد اهتمامي الأول: أن أتخطى العقبة في الزحام دون الالتفات إلى الوراء، ونظري متجه صوب أفق الخط الذي ستتدفق منه الكلمات وهي تستعد للدخول إلى الحلبة وحيث تترابط على حين غرة علامات الاستفهام أو التعجب: علامات التوقف التي ترغمني على الإبطاء، وهي تحاول الزجّ بي في ديمومة مصطنعة ومتباعدة بإفراط.. عندك علامة الاستفهام التي تقوم حاجزا وتُصدر إليّ أمرا للتخلي عن الخيط الأصلي الذي أمسك به، تصرفني إلى سؤال لا ضرورة له أو هو على كل حال بلا جدوى، وأُلزَمُ بالجواب عليه؛ فهل لهذا حقا من ضرورة؟ ثم هاك علامة التعجب التي َتصفِق في وجهي مثل الباب على الوجه! وأسوأ ما في الأمر كله الأقواس(الأتعس حقا هي العارضة) ـ التي ترمي بي في طريق مغاير وتأخذني نحو المغامرة مخاطرا بأن أفقد الاتجاه الأصليّ وأن أزيغ في تيهٍ، كما في تفاصيلَ تلو تفاصيل...

ناهيك عن الأخطاء الإملائية التي تفلت مني وأنا تحت ضغط هذه العملية وبسبب قلة العناية؛ فأكون مثل من ضيّع شيئا في الطريق وعليه أن يتوقف ويرجع إلى الوراء لاسترداده مضيّعا وقتا ثمينا في البحث بين السطور ونبش الحروف وتصحيح ما لابد منه، ما لا ينبغي أن يحدث، وما يلزم حسمه في الحين. هذا إذن، ما وجدتني محمولا عليه: أن ُأسوِّد وأسوّد دون هُدنة، وأن ُأُبقي على هذا الدفق من المداد على الصفحة لكي لا يتبقّى لي سوى الجزء الحيّ من فعلٍ لا يزُعم أكثر من أنه يغطي بما فيه من مخزون وتغمُره مخارج إفرازاته، أو كما يتبقى في النهاية عَظمٌ مفرَغٌ وُمتيبّس له لَمعانٌ تحت الشمس ولكن هشٌّ وعُرضةٌ للأمواج والمناقيرِ النهمةِ للعصافير: ــ كتاب!".